



الخطاب الثقافي لمالك بن نبي - مقارنة نقدية -

the cultural discourse of Malek Bennabi- A critical approach-

شهرزاد توفوتي

جامعة امحمد بوقرة بومرداس (الجزائر)
مخبر الخطاب الصوفي في اللغة والأدب

s.toufouti@univ-boumerdes.dz

أسماء تيفورة *

جامعة امحمد بوقرة بومرداس (الجزائر)
مخبر الخطاب الصوفي في اللغة والأدب

a.tifoura@univ-boumerdes.dz

المعلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2024/01/13	يهدف هذا المقال إلى مقارنة الأسس المعرفية التي يقوم عليها التفكير الثقافي لدى مالك بن نبي ، استنادا إلى المقولات والطروحات التي بنى عليها رؤيته الشمولية لمشروع النهضة الفكرية. إنَّ المتمعن في كتابات مالك بن نبي يدرك ذلك الزخم المعرفي الذي اتخذه معينا لرؤية ثقافية لمعالجة مشكلات الواقع الإسلامي ، وفي هذا السياق يتضح تأثير السياقات الثقافية والاجتماعية والتاريخية والسياسية في صياغة مساره نحو تفكيك أزمة الفرد المسلم إزاء إكراهات الواقع المتعددة .
تاريخ القبول: 2024/04/14	
الكلمات المفتاحية: ✓ التفكير الثقافي ✓ الرؤية الشمولية ✓ السياقات الثقافية	
Article info	Abstract :
Received 13/01/2024	<i>This article aims to approach the cognitive foundations on which Malek Bennabi's cultural thinking is based, based on the statements and propositions on which he built his comprehensive vision of the intellectual renaissance project. Anyone who examines Malek Bennabi's writings . He realizes the cognitive momentum that he took for an insightful vision to address the problems of the Islamic reality. In this context, the influence of the cultural, social, historical and political contexts in formulating his path towards dismantling the crisis of the Muslim individual in the face of the multiple constraints of reality becomes clear.</i>
Accepted 14/04/2024	
Keywords: ✓ Cultural thinking ✓ comprehensive vision ✓ cultural contexts	

1. مقدمة

يقف الباحث في الفكر الثقافي لمالك بن نبي على ثراء رصيده الثقافي، الذي نمله من مصادر ثقافية متنوعة، إذ يتفق الكثير من الدارسين أنّ هناك ثلاث تشكيلات اكتملت فيما بينها لتصنع التركيب الثقافي عند مالك بن نبي: المجتمع الفرنسي بثقافته الإمبراطورية، والمجتمع اليهودي بثقافته المكيافيلية، والمجتمع الجزائري المغلوب على أمره والخاضع للوسطين الدّخيلين عليه. فكل هذه الثقافات التي احتك بها مالك وعاشها، ثم أحسن الانتقاء منها وبلورتها فيما يفيد ويعود بالنفع على وطنه والعالم الإسلامي كافة، جعلت وعاءه الفكري يقدر ببرنامجه الثقافي نهضوي يهدف إلى إيجاد مسلك الخلاص للعالم الإسلامي من قيود التبعية الغربية، من خلال إصلاح أوضاعه النفسية والاجتماعية، وهو ما لمسناه عن كتب في إصداراته الفكرية التي تحمل بداخلها رحلته العلمية، بدءاً من أسرته ووصولاً إلى البيئة الغربية وبلدان العالم الإسلامي، أين أتم تغذيته الفكرية والثقافية ليكون بذلك المثقف الحقّ، فجاءت ورقتنا البحثية لتتناول بالرصد والتحليل طبيعة تكوينه الفكري الثقافي، وما تمخض عنه من رؤية ومفاهيم ثقافية حدّدت مكنم العلل، وأوجدت الترياق للمعلول.

2. مصادر إيقاظ الفكر الثقافي لمالك بن نبي ومضمراته الثقافية

إن التركيب الثقافي للإنسان يتهيأ خلال مسار زمكاني يعيشه ويعايشه، من خلال القواعد والأسس الأسرية ثم تأثير الاحتكاك بالفكر البشري المختلف، فتتبلور الرؤية الثقافية ومالك بن نبي لم يشذ عن هذا المعنى العام، ومما سبق نطرح الآتي تمثيلاً لما تم تناوله في المدخل: ما طبيعة التكوين الثقافي لمالك بن نبي؟ وما الأنساق الثقافية المضمرة فيه؟ ثم ما نظريته في الثقافة؟ فلقد كان ابن نبي محضرم ثقافياً، إنسان خريج الجامعة الفرنسية، وتلقى ثقافة إسلامية تقليدية من طريق الإيجاء من جدّته وعمّته. إنّ المتتبع لحياة مالك بن نبي يقف على ازدواجية المكان خلال تنشئته وتكوينه الفكري الثقافي، ما بين أرض الوطن وخارجه، فقد تشكّل تركيبه الثقافي من مشارب وثقافات متعدّدة ومتضاربة في الوقت ذاته، اجتمعت فيما بينها لإذكاء فكره الثقافي وفق ثلاث مؤثرات أساس جعلت تفكيره الثقافي ينتقل من مرحلة التشكل إلى مرحلة الممارسة، والتي سنفصل فيها في المباحث اللاحقة. فمالك بن نبي يعتبر مفهوم "الحضارة العالمية" مفهوماً أساسياً في دراسة قضايا التجديد الحضاري للأمة ولل البشرية جميعاً، فدراسة التاريخ، والحضارة، والاجتماع البشري عنده والثقافة ينبغي أن يكونوا ضمن إطار وحدة "الحضارة العالمية" ومفاهيمها، ومفرداتها، وأدواتها التحليلية الجديدة. وعلى الرغم من أن مالك بن نبي في بدايات فكره قد نظر لمسائل الحضارة الإسلامية، والحضارة المسيحية، والحضارة الهندية والبوذية من منظور "الحضارة ذاتها وحدة للتحليل" إلا أنه لم يرغب مطلقاً عن وعيه أن إطاراً جديداً للتحليل بدأ يتشكل في وعي البشرية هو "الحضارة العالمية" كوحدة تحليلية جديدة.

3. المؤثر العلمي (المنهجي) وعلاقته بالبيئة الثقافية وسبل التشكل

إنّ هذا التشكيل الجديد للحضارة والثقافة وهذا التحول ليس تحولاً طفيفاً أو فجائياً أفرزته عوامل خارجة عن نطاق الوعي التاريخي والاجتماعي للإنسان، وإنما هو تحول منطقي تابع للإطار العام للوجود البشري في هذا العالم، وهو كذلك حلقة في سلسلة تطور الوعي البشري، وتطور وجود الإنسان في الأرض. فمالك بن نبي يرى أن هذا التحول منطقي، ومطلوب إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التطور العام للتاريخ الإنساني.

استمد مالك تكوينه الفكري الثقافي من بيئتين مختلفتين، بيئة جزائرية فيها تشكّلت عنده أولى اللبنة الثقافية والمعرفية، وبيئة فرنسية منها استزاد معرفيا وثقافيا ولكل بيئة أنساقها الثقافية التي دعمت بشكل أو آخر تركيبته الثقافية متعدّدة المناهل.

1.3 البيئة الجزائرية وتبلور المفاهيم الثقافية

تكون فكره الثقافي من منطقتين من القطر الجزائري بدءا من مسقط رأسه بتبسة حيث تلقى تكوينه الأوّل على يد أسرته التي زرعت فيه النواة الأولى لتكوّن رصيده الفكري الثقافي الذي عرف به، وذلك من خلال الحرص على الحفاظ على مقوّماته الدّينية من والديه إذ من المعاني المسجلة في إهداء كتابه الظاهرة القرآنية، أنه يفضي بهذا العمل إلى روح أمه، وإلى أبيه: الوالدين اللذين قدّما له في المههد أثن الهدايا: هدية الإيمان.

وإلى جانب والديه كانت جدّته تهديه من القصص والحكي دروسا في الأخلاق والفضائل وأبرزها التمييز بين الخير والشرّ، مم أسّس له مستقبلا استنبات الفكرة الدّينية في تكوينه الشّخصي، وما الفكرة الدّينية في تصوّره إلا الفكرة الدّينية التي تبني الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة، كما يخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الرّوحية التي صبغتها في نفسه، ثم ما عاشه الجزائريون من ويلات الاستعمار الفرنسي، فكانت البذرة الأولى لذلك الموقف الذي تبناه من الاستعمار طيلة حياته (العويسي، 2012. ص: 540)، فغدت الأسرة بذلك المدرسة الأولى لمالك التي تشبّع منها روحيا، وهوية، فاعتبرها وسطا مؤثرا عليه بالرّغم من بساطة المستوى المعيشي ومحدودية الجانب المعرفي.

إن هذا المحيط الأسري الحاضن لمالك بن نبي أضمر ثقافة محبوة تحت جماليات بلاغية في أقوال مالك بن نبي، وتحت تشكيلات البيئة وثقافتها الكامنة فيها، حيث تستدعينا لاستظهار نسق ثقافي مضمّر أسماء الغدامي الجملة النسقية كونها علامة ثقافية معبّرة تحمل دلالتين: دلالة ظاهرية ومعنى نسقي. مثلا في نسق الفقر، فحين وصف مالك أسرته بالفقر الشّديد، أراد أن يمرر لنا معنى مهما وهو أن الفقر خلال الفترة الاستعمارية كان فقرا ماديا ليكشف خطأ من خطوط سياسة الاستعمار والتي هي الإفقار هذا من جهة، ومن جهة أخرى يؤكد صمود الأسر الجزائرية والحفاظ على التغذية الفكرية لأبنائها، فكان جوع البطون لا جوع العقول، فالفقر ذكره مالك بن نبي بمفهوم الكفاف وروح المقاومة وأنه من الدّعائم التي ساهمت آنذاك بشكل فعّال في الحفاظ على تماسكهم. إن الثقافة جعلت من نسق الفقر متعالية اجتماعية تساهم بصورة غير مباشرة في تعاضد الأسر آنذاك (قنبة، 2021. ص: 102).

لتتواصل الرّعاية الأسرية لمالك بحرص والديه على ضمان تعليمه بإلحاقه بالمدرسة الوحيدة وقتئذ بتبسة وكانت مدرسة فرنسية، خصّصتها فرنسا لتعليم أبناء الجزائريين لا حبّا في رفع مستواهم وتثقيفهم بل كانت تهدف من وراء ذلك إلى حمل الجزائريين على تشربّ روح العظمة الفرنسية وإيجاد ساعد قويّ منهم لفرنسا، وبالتالي إدماجهم في شعبها وحملهم على التجنّس بجنسيتها.

ولكن على الرّغم من ذلك فإنّ القيم التي بثتها الأسرة في مالك وزرع الروح الوطنية فيه جعلته ينجو من سياسة فرنسا بدليل أنه غدا مفكر الحضارة المناضل لأجل أمّته.

إن السياسة الفرنسية تكشف لنا عن نسق ثقافي آخر أكثر خطورة عملت فرنسا على ترسيخه في المجتمع الجزائري وهو القمع وإثبات التبعية والرضوخ من الشعب الجزائري لها، وقد أورد هذا النوع من الأنساق عبد الله الغدّامي في كتابه الأنساق الثقافية فيما أسماه بالنسق المخاتل الذي يُبينه نسق الاستعمار عبر سياسة الفرز الثقافي، الذي يبرز ثنائية المتن والهامش، فالمتن يمثّل فرنسا وهيمنتها به رغبة في طمس الهوية والدّمج، عبر بناء مدارس خاصة بالجزائريين، أسمتها بالمدارس الفرنسية الإسلامية جعلت التعليم فيها هزيباً جداً، فرنسا مائة بالمائة، يفتقد للتجهيزات الضرورية، وللأساتذة الأكفاء، والهامش هو التلاميذ الجزائريين وخضوعهم للتبعية، غرس ثقافة الأولوية والتبعية. من هذا كلّ استفاد مالك بن نبي وعيا ثقافيا رسخته الدروس المزدوجة بين الأسرة والمدرسة الفرنسية، وإلى جنبهما مطالعته الحرة للصحف خارج دروس المدرسة جعله يقفز على دسائس المستعمر ويكون فكره الثقافي برؤية استشرافية للمستقبل.

إن هذه الأنساق الثقافية المتحرّكة ضمنيا في المسار التكويني لمالك في البيئة التبسية والمختبئة خلف الجمالي البلاغي أو الواقع المعيش أو الجمالي السياسي الفرنسي المزيف للحقائق. حيث إنّ المتفحص في مستوياتها النسقية يجدها تستوعب نسقا ثقافيا ممثلا في أسرة مالك من خلال مؤشرها النسقي الذي يحمل استمرارية بث القيم رغم حالة الفقر الأسرية. ومنه نسقا ثقافيا ثانيا ممثلا في النموذج الفرنسي الغربي من خلال مؤشرها النسقي الذي يحمل حالتي الطمس والإدماج من خلال التعليم الفرنسي المزيف.

فالتعليم الفرنسي الذي نشرته فرنسا ظاهره اكتساب المعرفة، وتعلم اللغة الفرنسية والذي هو جزء من التكوين الثقافي، ولكن هو ذلك الحجاب الذي يغطّي على العيوب النسقية من تحت الجمالي، أين تكمن البشاعة الإنسانية التي تأسست أصلا في الذهن الثقافي المهيمن ممثلة في الإجرام الفرنسي بكل محاولاته وطرقه. (الغدّامي، 2005، ص: 256).

إنّ المدرسة الفرنسية بالنسبة لمالك الطفل فشلت فلم يقع ضحية لمخطّطها فقد تغذى ثقافة حقّة في مدينته تبسة لتكون حصنا ثقافيا منيعا للتيار الثقافي الفرنسي، يعود الفضل فيها إلى حلقات المسجد التي آذنت ببدايات الفكر الإصلاحية من جهة، والطابع الشعبي لمدينته من خلال أيام السوق وما تعرضه من حلقات القصّ والحكاية، كلّها عززت فيه ثقافة تمنع تسرب ما يناقض مبادئه، فاليئة التبسية البدوية، ظلّت مستمسكة بفضائلها وتقاليدها، حيث شكّلت نوعا من الدفاع الذاتي ضدّ الأوروبيين، فكانت مركزا ثقافيا تلتقي فيه عناصر الماضي، بطلائع المستقبل. (ابن نبي، مذكرات شاهد على القرن، 1969، ص: 21-28).

هي تركيبة المجتمع التبسي بتلوناته الفكرية بين واقع معيش مرير في ظل سلطوية المستعمر و بين تقاليد وأعرافه بروح المقاومة الدينية والفكرية الإصلاحية الطامحة إلى كسر قيود التبعية، وتبديد ظلمة التخلف، يقول ابن نبي عن تأثير تلك البيئة، التي تركت بصمتها الفكرية الثقافية عليه فكانت المدينة تكون بهذه العناصر المتنوعة بوتقة ثقافية تلتقي فيها بقايا الماضي، وبواد المستقبل، وكان وعبي يتكوّن تحت تأثير التيارين.

إنّ حياة مالك شهادة الابتدائية كانت جواز سفره العلمي لبداية رحلة ثقافية أخرى بعد ارتحاله رفقة والده إلى قسنطينة لينمو فكره الثقافي من ثلاثة مصادر انطلاقا من الدروس التمهيديّة في مدرسة الدّروس المتّممة لدى المعلم الفرنسي (مارتن)، وبجانبا دروس الشيخ عبد المجيد في اللغة العربية، فتهز سعة تحصيله، حيث تأثر بالشيخ عبد المجيد - مدرس اللغة العربية من جهة، والسيد مارتن من جهة أخرى

كُونَا في رُوحِي من بعد العادتين اللتين عَيَّنَا _أو كادتا_ ميوله الفكري. وهذا يؤكد نضوجه الفكري الثقافي، كما يبرز الدور الفعّال للشيخ عبد المجيد في تفتيح بصيرته ضد دسائس المستدمر، فقد غرس في مالك وبقية تلاميذه حاسة النقد الاجتماعي، أمّا مارتن فقد غرس فيه تذوق المطالعة، حين شجّعه على القراءة وفسح له المجال بإعارته الكتب نهاية كل أسبوع.

كان مالك طالبا للعلم في قسنطينة على يد أساتذة مختلفي الثقافة و متناقضي العقيدة، ما بين مشايخ اللغة العربية والدين الإسلامي، وفي المقابل المدرسون الفرنسيون، كان حاذقا فيما ينتقيه من المعرفة ويتخيره من الثقافات التي انتشرت في المدينة القسنطينية عبر الفكر الفرنسي و الثقافة الجزائرية وباقي الثقافات التي تصل عبر الصحف، لقد كان الشيخ المولود بن موهوب يدرّب فكرنا وروحنا على اقتفاء السنّة من جهة، وكان معلّمونا الفرنسيون يسكبون في روحنا وفكرنا محتوى ثقافة ديكارتيّة تبدد ذلك الضباب الذي ينمو في الفكر الأسطوري الذي كان يتواءم وضلالات الاثكال على أشخاص لا يملكون للناس ضرا ولا نفعا، تلك البدع المنتشرة في الجزائر حينذاك. فحمل مالك المنهج الديني الواضح والمنهج العلمي المنطقي.

لقد كان مالك مهتما بالمطالعة من غير دروس المدرسة، ولكن كان يقرأ خفية عن مدرسي المدرسة، فكانت قراءاته ومطالعته تحت الرقابة. فالمطالعة الحرة ممنوعة داخل المدرسة، وهنا تتضح سياسة فرنسا في محاولة تضيق الخناق الفكري الثقافي، ليكون مقتصرا فقط على ما تسعى إليه من تثقيف يتلاءم مع سياستها الاستعمارية وإبقاء الغير تابعا لها (الأولوية والتبعية)، وهو نسق ثقافي خطير أشرنا إليه فيما يسمى بالنسق المخاتل عند عبد الله الغدّامي.

تعددت قراءات مالك لتشمل المجال الأدبي والمجال الصحفي والفكر الإسلامي وحتى مجال الفلسفة، فما اجتمع له من ثقافة اجتماعية وسياسية استمدّها من الصّحف وبخاصة صحيفتي (الإنسانية والإقدام)، حيث إنّ الصحيفة الشيوعية الإنسانية كانت تطمئن و تحفّف من ضممي الوطني، فمقالات كاشان وفايان كوتربيه، كانت تنفخ أوداجي بغضبات مضرية.

إنّ الذي نستجليه من قول مالك هو أنه كان يقرأ لكل الثقافات ولكل الديانات والعقائد، لكن لا يستقي منها إلّا ما يدعم حسّه الوطني لمجابهة الاستعمار، دون أن تؤثّر فيه أو تخلخل مبادئه التي نشأ عليها. كما يظهر أثر قراءاته للأدب العربي القديم في سياق خطابه والتي تكشف أيضا عن المضمّر الثقافي فحين وصف الأثر الذي تركته الصحيفة الشيوعية عبّر عنه بالغضبات المضرية وهذا الذي يسمى في الأنساق الثقافية باستعادة النموذج، فهذا المعنى النسقي يظل يتكرر في الخطاب المعاصر، فغدّت سمة نسقية تحوي فخرا نسقيا بالغا. (الغدّامي، السنة 2005. ص: 174).

أما صحيفة "الإقدام" فكان ينهل منها الموضوعات السياسية الأولى الدّقيقة مثل ما يصيب الفلاح الجزائري من انتزاع ملكيته، كما تفضح تجاوز الإدارة الفرنسية وسياستها في إبقاء الجماهير الشّعبية في جهل وجاهلية. (العويسي، السنة 2012. ص: 168)

إنّ هذه القراءات زادت وعايا بحاضره وما يجري فيه، وقوّت دخليته على معارضة الاستعمار ورفضه، وهنا تكمن المضمرات التّسقية، تحديدا نسقية المعارضة كما تناولها الغدّامي في منجزه النقدي الأنساق الثقافية، على أنّها تشمل مسائل الرّأي والفكر، فمالك رفض فكرة

المستعمر وعارض سياسته وخطوطه الساعية إلى الدّمج و الطمس . فمجلة المؤتمرات أخذ منها روح التحرّر من العبودية التي كانت شديدة الوطء على المثقفين العرب تجاه عبقرية أوروبا وثقافتها، ويضيف بأنّ تلك القراءات قد غيرت نظرتة كرجل إفريقي حيث نرعت عنه مغلاقاً من مغاليق الاستعمار كان يرين على قلبه، فذلك عين اليقين. لذلك كانت هذه المجالات والصحف العالمية جملة أنساق ثقافية تمرّت إلى فكر مالك وغيره ممن حملوا بدايات روح الفكر الإصلاحي، والانتفاضة ضد المستعمر بالرفض القاطع له، كما سجل مالك في مذكراته شهادة وإشادة في الوقت نفسه معترفاً بفضل كتابات ابن خلدون، وكتابات (أوجيه يونج) على أنه أجبج حمّي العداء للاستعمار في روح جيله، كما أكد أن كتابه : الفشل الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق لأحمد رضا ورسالة التوحيد لمحمد عبده، من أبعد المنابع وأكثرها تعييناً لوجهي الفكرية، وأنه مدين لهما بتحوّل فكري منذ تلك الفترة.

إنّ المتمعن في رؤيته الفكرية بشأن ما أضافته له قراءاته التي شملت النتاج العربي و الغربي، يجد أن أكثر ما أشار إليه من استزادة ثقافية وفكرية كانت تلك التي تحمل روحه وفكره على كشف حقيقة الاستعمار وبالتالي مقاومته، ولأنّ النقد الثقافي يحاول دائماً الاقتراب من القضايا الشائكة التي طالت المجتمعات، وأبرزها قضية الاستعمار ممثلاً في (الأخر). راح يميظ اللثام عن فلسفته الثقافية وبنيتة الفكرية. يعتبر مالك بن نبي مخترع ثقافي يتمثل في العجز عن الكلام والتعبير لأسباب قمعية سلطوية، فالمجتمع الجزائري إجمالاً ومالك بن نبي تحديداً ظل صامتا لا يستطيع بعث فكره التحرري في ظل الاستعمار، بيد أنّ رؤية مالك بن نبي الثقافية والفكرية لمفهوم الرضا فإنّه يجيلهما إلى معنى الصمت كونه صوت العقل لا يزال صامتا في هذا المجتمع الوليد، فكلّ لغة هذا العصر كانت روحية المنطق... لكن ظلّت الطّبيعة البشرية محتفظة بنزوعها إلى التحرّر. ولكن انفتاحه على باقي الثقافات الغربية بتنوع شعوبها، التي صورت بطولات أجدادها من جهة، ورفي نظرتها الفكرية من جهة أخرى، جعلت مالك يخرج عن صمته ويدخل دائرة الرّفص فيما عبر عنه من سخط وتأجج روح العداء للاستعمار، وعليه فإن أنساق الرضا والرّفص في المجتمع الجزائري خلال الحقبة الفرنسية شكّلتها دوافع نفسية واجتماعية فرضها الواقع المعيش آنذاك.

إنّ المجالس العامة التي كان مالك يرتادها طلباً للمعرفة وتنمية فكره الثقافي، من مقهى بن يمينة الأدبي الذي تلتقي فيه العقول الثقافية لتتبادل وتناقش ما أمكن من المعارف والمسائل الفكرية، مكّنته من ولوج مجال ثقافي آخر، يعد أبرز عوامل إذكاء فكره الثقافي، وهو مجال الفلسفة.

2.3 البيئة الفرنسية وتبلور المفاهيم الثقافية

إن الرحلة العلمية لمالك بن نبي إلى البيئة الفرنسية كان مسوغها في ذلك الارتقاء بمستواه المعرفي حيث أنه لاشيء يشغل باله سوى التحصيل العلمي، وتعبئة رصيده الثقافي بوصفه المثقف الذي يحمل على عاتقه مسؤولية النهوض بعالمه الإسلامي وبوطنه على وجه الخصوص، وأنه لم يعد له من حلم سوى التحصيل العلمي، وأصبح يشعر وكأنه حمل آثام مجتمع يبحث عن الخلاص من يؤسه، كأنه بالنسبة إلى ذلك المجتمع كبش فداء، شاعر بثقل ما حمله من مسؤوليات ومحن، وآمال ليحقق له الخلاص بفضل دراسته .

ولتحقيق مراده واصل على نفس ما طبع عليه في تنشئته الثقافية الأولى في أرض وطنه، مرتكزا في ذلك على محورين أساسيين في تكوينه وهما التعلم المدرسي و المطالعة الحرة، حيث تمكن فيما بعد من معالجة مشكلات الأمة الإسلامية، ضف إلى ذلك ما توصل إليه من مفاهيم ثقافية تنبي عن نظريته العميقة في الثقافة، ودونما إسهاب نعرض أبرز المدارس التي التحق بها وما جناه من فكر ثقافي منها، مع البحث عن المحمولات الثقافية خلال هذه الرحلة العلمية والتي توزعت في تخصصات جمة كان لها واسع الأثر في مساره الفكري التحليلي، ونعني انتماءه لمدرسة اللاسلكي، ومدرسة الكهرباء والميكانيك.

مما ساعده على اكتساب الدقة وضبط المفاهيم مع قوة الملاحظة وتحويل المعرفة المكتسبة وإسقاطها على مجتمعه بغية الارتقاء به. إنَّ انخراط مالك بن نبي في "وحدة الشباب المسحيين" أدى إلى تمكنه من فهم النموذج الغربي مقارنة بالنموذج الأولي الديني. إنَّ هذا التكوين العلمي الذي تلقاه مالك واستفاده من البيئة الفرنسية في ظل التقدّم التكنولوجي آنذاك في البيئة الغربية، لم يتوقف عند حدوده بل حرص أيضا على مضاعفة ثقافته الإسلامية، لنأتي على مؤثر مهم في إيقاظ فكره الثقافي.

4. المؤثر الفلسفي

الدارس لفكر مالك بن نبي وتوجهه الفكري يكتشف حضور البعد الفلسفي في بنائه الثقافي وطرحه الفكري والعلمي، وكان الأساس لتكون النواة الفلسفية لديه مؤلفات كونديلا التي أعانته على ضبط أفكاره وتحديد خطوط مسارها ودقّتها، (عبد الله العويسي، 1969. ص:174) لقد أكد بن نبي بأن من مصادر كسبه العلمي التي تحصل عليه مع كونديلا، هو النضج العقلي لأفكاره.

إنَّ البعد الفلسفي عند مالك فيم اغترفه من كتاب جون ديوي (كيف أفكر) فكان جون ديوي اكتشافا لي في أكثر من مجال.

لم يتوان مالك بن نبي ولا لحظة عن القراءة والانفتاح الفكري بين بيئتي تبسة و قسنطينة، فانبت عنده الرّكائز الأساسية روحيا ووطنيا، التي سار وفقها في المجتمع الفرنسي الذي رحل إليه طلبا لمزيد من العلم والثقافة.

5. المؤثر الحضاري الإسلامي

فضلا عن الثقافة الإسلامية التي تلقاها وتوسع فيها في قسنطينة و خلال فترة تواجده بفرنسا في المركز ولأن مالك بن نبي كان متحمّسا للإسلام، غيورا عليه إلى درجة غير عادية (البعثي، 1972. ص:193) شغف قلبه بالبحث في ثقافته الإسلامية وتم له ذلك من خلال رحلة الحج التي أتاحت له الوقوف على المعرفة الإسلامية بالمشاهدة والمعاينة وقد أثمرت فيما بعد دراساته العديدة حول الإسلام، إضافة إلى إقامته بمصر وكذا سوريا ولبنان حيث تمكن من دراسة هذه المجتمعات من الناحية النفسية والاجتماعية، وبذلك يكون الفكر الثقافي لمالك بن نبي قد أخذ نصيبه الوافي في الجانب الحضاري الإسلامي من خلال اطلاعه على مصادر التراث الإسلامي. سار وفقها في المجتمع الفرنسي الذي رحل إليه طلبا لمزيد من العلم والثقافة.

6. النموذج الثقافي لمالك بن نبي وبعض تظاهراته

يسعى فكر مالك بن نبي إلى توظيف بعض المصطلحات ذات السمة الثقافية لتأكيد مشروعية رؤاه وقوة طرحه، و إنّ التفكير وفق عتبات المصطلح يجعل جهد مالك بن نبي واضحا و مؤطرا بالمصطلح الثقافي وتظاهراته في الواقع الاجتماعي والثقافي، ولعلّ في مقدمتها ما يظهر في التالي:

1.6 هيمنة المركز

من خلال ما اكتسبه مالك بن نبي في مجال الرياضيات، من الدقة والتركيز، وكذلك معاشته للمجتمع الفرنسي. استطاع أن يصل إلى مؤشر ثقافي هام جدًا كشف له السبب الكامن وراء سيطرة الثقافة الغربية على الشرق، كما أسماها الناقد عبد الله إبراهيم بثقافة المركز فالرجل الفرنسي يمتحن كل المهن خارج وظيفته على عكس الرجل الجزائري الذي تقاعس وحصر نفسه في دائرة أحادية الوظيفة... وبهذا سعى مالك للخروج من دائرة مجرّد التقليد و النمطية، ليكون ذلك المتقف الذي يجمع بين موروثه و مواكبة التطورات الحاصلة في مجال الفكر(الأصالة والمعاصرة) وعيا منه بضرورة تفعيل العقل العربي وتجديده، في ظلّ ما تمارسه ثقافة المركز من سطو وهيمنة، وما تتقبّله ثقافتنا دون وعي وتمحيص، ودونما تفاعل مع الآخر. فهذا المعنى الذي يبين دعوة مالك بن نبي الصريحة إلى الاستزادة الثقافية ولكن بشرط البلورة والغربة لأخذ ما يتناسب وديننا ومقوماتنا ومن جهة ما يسمح ببناء إنسان عربي بفكر خضاري جديد، وإنّ الذي يوضح أكثر بعث النهضة عند مالك بن نبي هو وضعه من شروط حين قال: "إنّه ليجب باديء الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخلفي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتّالة، ورمم لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحيّة والدّاعية إلى الحياة، وإنّ هذه التّصفية لا تأتي إلا بفكر جديد يبنّي على شرطين: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي و إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل.

ومما أدّى إلى إرساء الكفاءة الإنسانية، وإتماء المهارة الثقافية لدى مالك بن نبي، حديثه عن شروط النهضة وما يعضد نخوض حضارات الأمم وسقوطها .

2.6 الفعالية

الفعالية تحمل أبعادا تقاطبية: قطب لغوي: من الفعل فَعَلَ، يَفْعَلُ، والمصدر منه فَعَالٌ يعني الكرم (ابن منظور، د.ت. ص:528)، أي القدرة على إنتاج الأثر، وقطب سيكولوجي: عملية عقلية، بيولوجية، نفسية، تساعد الإنسان على استخدام قدراته لإنتاج الأثر النافع في الواقع، وقطب فلسفي: الفعالية هي رؤية نفعية براغماتية للحياة، للإنسان، للقيم.

إنّ هذه التلويفة البسيطة تقودنا إلى ما ذهب إليه مالك حول مفهوم الفعالية كسلوك إرادي موجّه، ينبع من أنفسنا إزاء مواقف يراد تغييرها تغييرا اجتماعيا يهدف في الأصل إلى الحثّ على المعروف والنهي عن المنكر.

فالفعالية صفة تحمّ من قاموس المجتمع العربي الإسلامي والجزائري على وجه الخصوص، فأصبح يعاني التخلف والجهل والمرض والفقير، وبمعنى آخر الفعالية هي قدرة الإنسان على استعمال وسائله الأولية، واستخراج أقصى ما يمكن أن يستخرج منها من نتائج، وفي مقابل هذا المفهوم، اللافعالية: هي عجز الإنسان عن استخراج النتائج التي يمكن أن يحصلها من الوسائل المتاحة. بيد أنّ تعطيل الفعالية كخيار نفسي ومعطى حركي دينامي، يتولّد عنه التكديس في عالم الأشياء والأفكار، والقابلية للاستعمار كمحصّلة ثقافية وجغرافية، فحين تغيب

الفعالية، ويقع التكديس، تكون القابلية للاستعمار، والتي هي حالة من الانهيار النفسي والانهازية التي تفقد الفرد القدرة على التغيير، فيصبح فضاؤه الخواء قابلاً للامتلاء، هذا من جهة، ومن ناحية أخرى فإن القاعدة الفيزيائية العامة تقول: الطبيعة لا تؤمن بالفراغ، فالكرسي الشاغر إن لم يشغله أهل الحق، شغله أهل الباطل، فيقول في هذا "أخرجوا المستعمر من أنفسكم، يخرج من أرضكم." (ابن نبي، شروط النهضة، 1979. ص: 155).

3.6 التّكديس

استناداً إلى مفهوم أنّ "الثقافة لاتلّغ، إنّنا نتعلّم كيف ننتمي إليها" (بن كراد، 2015. ص: 73)، فإن مالك بن نبي لم يكن مجرد مرّد لثقافة المجتمع الغربي (الفرنسي) وإنما مبتغاه من التحصيل الفكري الثقافي هو الاستفادة بغرض الإفادة، مثل استفادته من تجارب جورج كلود في الحرارة البحرية، فاستخدم مالك الحرارة الصحراوية (العويسي، 2012. ص: 194) فمالك لا يكّدس المعلومات ولا يحتكر الثقافة بل يمرّر ويطبّق على الأفراد والمجتمعات خاصة العالم الإسلامي. وهذا الذي أفرز فيما بعد مصطلحاً ثقافياً عند مالك أسماء: التّكديس.

لقد طالت ظاهرة التّكديس العالم الإسلامي، من حيث عدم القدرة على ترتيب الحاجيات الإنسانية بين ما هو ضروري وما هو كمالي، كمّاً وكيّفاً حين أخذها من الحضارة الغربية، وعليه تحدث التراكمية والتكديس في عالم الأشياء والأفكار، فتكون حضارة عربية مستنسخة عن الحضارة الغربية بأخطائها، كما يعبر عن ذلك: "ومن البين أنّ العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة" (ابن نبي، شروط النهضة، 1979. ص: 44). فمالك بن نبي خلال رحلته العلمية إلى فرنسا ومن خلال احتكاكه الثقافي فيما استزاده فكرياً من البيئة الفرنسية، استطاع أن يضع الأصبع على موضع الداء، ومواطن الخلل الفكري والاجتماعي والحضاري لأمته، ليخلص إلى تلخيص مشاكلها في ثلاثية متى استقامت استقام المجتمع وبنيت الحضارة، وإن شأها الخلل فلن تبني الحضارة، وهي: الإنسان والتراب والوقت، فيقول: "فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكّدس المنتجات، وإنّما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها، مشكلة الإنسان، التراب والوقت" (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1979. ص: 45).

لقد تمكن مالك من قراءته، بكشف الدسائس والمخاطر التي تمررها الثقافة الغربية، عن طريق الصور الكريكاتورية التي تخفي العيوب النسقية / القبيح الثقافي كما تناولها عبد الله الغدّامي في كتابه التّقّد الثقافي، وأشرنا إليها سابقاً فيما تم تناوله في ورقتنا البحثية هاته، بخصوص الشعوب المقيدة، وخاصة الشعوب الإسلامية، فكانت المطالعة وراء شمولية ثقافته، وما اهتدى إليه من حلول لمعالجة مشكلات الحضارة التي استطاع تشخيصها بدقة متناهية.

7. خاتمة

ما يمكن الإمام به في نهاية هذه الدراسة النتائج الآتية وأهمها:
لقد أتاح التكوين الثقافي لمالك بن نبي حمل قضايا العالم الإسلامي والنهوض به من أجل التغيير الاجتماعي المنشود لتكون رسالته وديدهن كتاباته الفكرية التي بدورها تبين ثراءه الثقافي الذي منحه شمولية في الرؤى، وعقلانية في الطرح، ودقة في المفاهيم الثقافية. والجالس إلى مالك بن نبي يحسّ مباشرة أنّه أمام مفكر كبير، ذي نظرة شاملة، واسع التجربة، علمي الثقافة.

قائمة المراجع

أ- المؤلفات :

- 1- إبراهيم، عبد الله. (2010). الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- 2- برغوث، الطيب. (2006). آفاق في الوعي السنني - الفعالية الحضارية والثقافة السننية - . سوريا: مركز الياة للتنمية الفكرية.
- 3- البعني، إبراهيم. (1972). شخصيات إسلامية معاصرة . القاهرة: دار الشعب .
- 4- تركي، رابح. (1981). الشيخ عبد الحميد بن باديس: رائد الاصلاح والتربية في الجزائر . الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
- 5- العويسي، عبد الله بن حمد . (2012). مالك بن نبي حياته وفكره. بيروت : الشبكة العربية للأبحاث والنشر .
- 6- بن عيسى، رشيد. (2015). مالك بن نبي والمشروع النهضوي. بيروت: معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية.
- 7- الغدّامي، عبد الله. (2005). النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- 8- قنواقي، مروان. (1969). مذكرات شاهد القرن . مالك بن نبي، ترجمة . بيروت: دار الفكر
- 9- بن كراد، سعيد. (2015). مسالك المعنى، دراسات في الأنساق الثقافية. الرباط: منشورات الزمن.
- 10- ابن منظور، محمد بن مكرم. (2016). لسان العرب، القاهرة: دار المعارف.
- 11- ابن نبي، مالك . (2019). تأملات . دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر .
- 12- ابن نبي، مالك . (1949). شروط النهضة، تر عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر.
- 13- ابن نبي، مالك . (1969). مذكرات شاهد للقرن . دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر.
- 14- ابن نبي، مالك . (2019). مشكلات الثقافة. دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر.

ب- الأطروحات :

- 1- قبنة، السعيد. (2021). الأنساق الثقافية في الرواية الجزائرية المعاصرة، سفر القضاة لأحمد زغب نموذجاً، أدب عربي حديث ومعاصر، جامعة غرداية، الجزائر.
- 2- جلطي، بشير. (1992). الاتجاه التربوي عند مالك بن نبي. الفلسفة. جامعة وهران، الجزائر.